فن الوصايّا عند لسان الدين بن الخطيب
من خلال دراسة فنية لوصيته لأبنائه

The art of a commandment according to LisaneEddinibn Al-Khatib through Technical study of His commandment to his children

د. سالم بن لباد*

د. مالكي سميرة♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/15	تاريخ القبول: 19 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

ملخص:

الوصية من الفنون النثرية التي عرفها أدباء الأندلس وبرعوا فيها، فكانت هناك مساهمات للكتاب والشعراء والأمراء والحكام ورجال الدولة في هذا الفن كالحكم بن هشام بن عبد الرحمن،أبي بكر بن القصيرة، ابن الجنان، ابن سعيد، يوسف بن تاشفين، ابن تومرت، وغيرهم.

أما لسان الدين بن الخطيب، والذي ذاع صيته في الشرق والغرب ، فلقد نهض بفن الكتابة في القرن الثامن الهجري، حيث ألف في مختلف الفنون النثرية كالخطابة والرسائل والمناظرات والمقامات الأندلسية...

ولكن المتأمل في نصوصه النثرية يجد أن وصيته لأبنائه من أهم وأصدق ما كتبه لسان الدين حيث قدم فيها خلاصة خبراته وعصارة تجاربه، فكانت وصية تخاطب العقول قبل القلوب.

المؤلف المرسل : د. سالم بن لباد salahmed13@hotmail.fr

***جامعة أحمد زبانة غليزان الجزائرsalahmed13@hotmail.fr**

♣جامعة وهران 2 الجزائر .malkisamira13@gmail.com

فجاءت هذه الدراسة تهدف إلى تسليط الضوء على الخصائص الفنية لوصية بن الخطيب.

ومن أجل هذا سنقدم نبذة عن سيرة هذا الأديب الفذ، ثم نتطرق لوصيته لأبنائه، ودراستها دراسة فنية.

الكلمات المفتاحية: فن الوصية، لسان الدين بن الخطيب، الخصائص الفنية، الشكل والمضمون.

Abstract:

The commandment is one of the arts of the prose that were wellknown and excelled in among Andalusian writers.Many writers, poets, princes, rulers and statesmen have been interested in writing in this field of prose, such as al-HakamibnHishamibn Abdul Rahman, Abu Bakribn al-Qusayr, Ibn al-Jinan, Ibn Said, YucefibnTashfin, IbnTumert , And others.

As for liSaneaddinIbn al-Khatib, who was kwown as a famous writer in both East and West of the muslim world, he made a renaissance of the arts of writing during the eighth century AH, he wrote in rhetoric, letters, debates, and AndalusianMaqamat

Yet, one of the best writings of Ibn al-Khatib is the commandment in which he addressed minds before hearts among his children, he revealed some of his most important experiences in life.

This study aims atsheding light on the technical characteristics of Ibn al-Khatib'scommandment, therefor, the focus in this paper is upon the biography of this outstanding writer, and the technical study of his commandment addressed to his children.

Key words: the art of commandment, liSaneEddinibn Al-Khatib, technical characteristics, form and content.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

1. **مقدمة:**

يعد أدب الوصايا من الأشكال الأدبية المهمة في العالم العربي، وذلك لصلته الوثيقة بحياة الانسان، في بنائه الروحي والاجتماعي، وخاصة في توجيهه القويم، كما يحمل هذا الموضوع المادة الخصبة في البحث.

ونحاول في هذه الورقة التركيز على أحد زوايا البحثفي هذا المجال، واخترنا لسان الدين بن الخطيب ووصيته لأبنائه، التي تبقى موضوعا أدبيا مهما، لما تحمله من مظاهر فنية تتجلى في جانبها البياني والبديعي المميز.

وقد عالجنا الموضوع انطلاقا من الإشكالية الآتية: ماهي العناصر الفنية التي احتوتها وصية لسان الدين ابن الخطيب؟ وكيف تجلت من الناحية الجمالية والفنية؟

2.تعريف الوصية :

1.2.لغة :

وصى:أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيتُ الشيءَ: وصلته، ويقال: وطِئنا أرضا واصيةٌ، أي إنّ نبتها متصل قد امتلأت منه .

والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يوصى أي يوصَل يقال: وصيتُه توصية. وأوصيته إيصال .[1]

وأوصى : أوصيت له بشيء. وأوصيت إليه، إذا جعلته وصِيَّك، والاسم الوِصاية والوَصاية. وأوصَيتُه[2]، ووصيتُه أيضا توصية.

وأوصى الرجل ووصاه: عهد إليه، وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضا [3]

2.2.اصطلاحا :

إذا الوصية من الوصل والاتصال، فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال.

فهي نقل أمين للتجارب السابقة، والخبرات المكتسبة والمعارف، يقدّمها الموصي من أجل تحقيق الفائدة للمتلقين.

3. أنواع الوصايا:

1.3. الوصايا الدينية: الوصايا الدينية تحث الناس على امتثال أوامر الله عز وجل،واجتناب نواهيه، وضرورة العمل الصالح، وحفظ القرآن، والحفاظ على الصلاة، والصيام وإقامة شعائر الإسلام.

2.3. الوصايا الاجتماعية:الوصايا الاجتماعية تنظم شؤون الحياة، وتوجه السلوك نحو العيش النافع، وتبين كيفية التعامل مع الأصدقاء والأعداء.

3.3. الوصايا السياسية: الوصايا السياسية جانب من جوانب الآداب السلطانية، تنظم شؤون الدولة، وتقدم نصائح في كيفية إدارة الحكم.

4. نبذة عن سيرة ابن الخطيب.

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلْمَاني، نسبة إلى (سلمان) وهو حيّ من مراد من عرب اليمن القحطانيين، يُكنّى أبا عبد الله، و يلقب بلسان الدين[4]، وهو لقب مشرقيّ، وبذي الوزارتين، لجمعه بين الوزارة و الكتابة، أو السيف و القلم، وكان يعرف أيضا بذي العمرين، لاشتغاله بتدبير الحكم في النهار، وبالتصنيف في الليل، والخطيب لقب جده.

وفي مدينة لوشة ولد ابنه لسان الدّين محمد في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة 713هـ (16 نوفمبر سنة1313م)[5]. ونشأ بغرناطة ، و تأدّب على شيوخها.

وفي عام 741هـ التحق لسان الدّين بديوان الكتّاب أو ديوان الإنشاء؛ خلفاً لأبيه الّذي توفيّ قتيلاً في موقعة طريف[6] في ذلك العام، و قد ثقف ابن الخطيب صناعتي النّظم والنّثر مسترشداً بأستاذه ابن الجيّاب الّذي كان رئيس ديوان الإنشاء إلى أن توفيّ بالوباء الجارف (الطّاعون) سنة 749هـ[7]، فخلفه ابن الخطيب في رياسة الكتّاب، ومنحه أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة.

وبعد محن تعرض إليها ابن الخطيب توفي سنة 776هـ[8]؛ ولا يزال قبره قائما في باب المحروق بفاس في ضريح صغير عليه هذه العبارة: "هذا ضريح العلاّمة لسان الدّين بن الخطيب".

ويعد ابن الخطيب كاتبا غزير الإنتاج ألف أكثر من ستّين مؤلّفا[9]؛ فيالأدب، والتّاريخ، والجغرافيا، والسّياسة، والطّب، وأُصول الدّين، والتّصوّف، والشّريعة، والموسيقى، والتّراجم؛ بعضها مطبوع، وبعضها مخطوط، و بعضها الآخر مفقود.

وقد امتلك ناصية الأدب، شعرا و نثرا، ما دفع بصديقه ابن خلدون إلى القول:«ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يُجارى فيهما»[10] وأضاف:«وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يُساجل مداه، و لا يُهتدى فيها بمثل هُداه»[11]كما أعده ابن الأحمر « شاعر الدنيا ، وعلم المفرد و التثْنيا، وكاتب الأرض، إلى يوم العرض...»[12].

5. وصيّة لسان الدين بن الخطيب لأبنائه:

ذكر المقري أنّ ابن الخطيب أنجب من الأولاد ثلاثة [13]، وهذه الوصيّة كتبها لهم، وهي وصيّة جامعة نافعة، أراد أن يخُصّ أبناءه بها، يُضمّنها خلاصة تجربته وهذا لما شعر بقرب أجله يقول : « فإني لما علاني المشيب بغُمته ، وقادني الكبر برُمّته، وادركت

بعد أُمّته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رَعْيُه، وتعلّق بعيني سَعْيُه، وأملت أن تتعدى إليَّ ثمرة استقامته...»[14]

فهي وصية أب حريص مشفق مودعهم وإن سالمه الردى ، ومفارقهم وإن طال المدى، فاستهلها بمقدمة يقول فيها:«الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، مُلهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، ومُوضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، لا سيما للولي المحبوب ، والولد المنسوب ... »[15]

ولسان الدين في مقدمته سار على الخطى المرسومة في طريقة الكتابة العربية التقليدية التي تبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه الكرام .

وهو إذ بدأ مقلدا نراه مجددا بأسلوبه الرائق حيث سخر الكلمات وطوّع العبارات لتمهد لغرضه العام ألا وهو النصيحة.

على أن لسان الدين أراد لهذه الوصية أن تكون هداية لأولاده الثلاثة وذريتهم من بعدهم أيضا؛ لذا فهو يوصي بضرورة تناقلها فيما بينهم لقوله:« فاقتنوها من وصيّة، ومَرام في النصح قَصِيّة، وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادهم إذا انتقلوا».[16]

وهو إذ يقدم لهم وصيته يؤكد أهميتها وما تعود به عليهم من خير إن هم التزموها، وبأنها الطريق إلى نيل الشرف والسعادة في الدين والدنيا لقوله:«ولتلقنوا تلقينا ، وتعلموا علما يقينا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش التراب جنبي، ويسحّ انسكابي، وتهرول عن المصلّى ركابي، أحرص مني على سعادة إليكم تُجلَب، أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتُطلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أورفَ منكم ظلاّ، ولا أشرف محلا، ولا أغبط نهلا وعلاً ».[17]

ثم ينتقل إلى مضمونه الوعظي ويوشح وصيته بلوحة غنية من الاقتباسات من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد اقتبس وصية لقمان الحكيم إذ قال لابنه :﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِك بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[18]،﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ، و أْمُرْ بالمَعرُوفِ،وانْهَ عَنِ المُنكرِ، واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ، ولاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ و لاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ،وَ اقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾[19]

وهي وصية عامة في التوحيد، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والصبر والحض على التواضع، وترك الكبر، ثم أعاد وصيّة خليل الله وإسرائيله، حكم ما تضمّنه حكم تنزيله ﴿يَا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ و أنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.[20]

ثم بدأ يحثّهم في هذا المقام على الإيمان بالله الواحد والإيمان بكلّ ما جاء به نبيّه، مجملا ومفصّلاً، مبيّناً لهم أنّه قد قطع زمانه في البحث، فلم يجد مسألة أو غاية يقصدها الإنسان إلاّ و قد فصلتها الشّريعة وسبقت إليها، ثمّ هو يشدّد على حثّ أولاده على أداء الصّلاة والتّنويه إليها بفضائلها وإقامة فروضها ونوافلها، فيقول: «الله الله في الصّلاة ذريعة التجلّة، خاصة الملّة، وحاقنة الدّم، وغنى المستأجر المستخدم، وأمّ العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشّهادة، والنّاهية عن الفحشاء والمنكر[21]».

ثمّ يوصيهم بعد ذلك بأداء الزّكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله، ثمّ ينوّه بوجوب الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لهم القدرة عليه، وذلك في قوله:

«و الزّكاة أختها الحبيبة ولِدَتها القريبة، مفتاح السّعادة بالعرض الزّائل، وشكران المسؤول على الضّدّ من درجة السّائل، وحقّ الله تعالى في مال من أغناه، لمن أجهده في

المعاش وعنَاه، من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه، ولا علّة إلاّ القدر الّذي يخفيه وما لم ينلْه حظّ الله تعالى فلا خير فيه ...

وصيام رمضان عبادة السّرّ المقرّبة إلى الله زُلْفى، الممحوضة لمن يعلم السّرّ و أخفى، مؤكّدة بصيام الجوارح عن الآثام، و القيام ببر القيام، و الاجتهاد، و إيثار السّهاد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعيّة، و لواحقه الشرعيّة، فبذلك تحسن الوجوه...

والحجّ –مع الاستطاعة- الرّكن الواجب، و الفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بيّن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قدره فيما فَرَض عن ربّه و سنّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلاّ الجنّة، ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممّن يسمع نفيره و يطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه».[22]

وبهذا يكون قد أرسى فروض الإسلام، «هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مُبدّلين، ولا مُغيّرين، ولا تضيّعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين».[23]

ثمّ يوصي ابن الخطيب أولاده بعد ذلك بتحصيل العلم النّافع؛ وخير العلوم: علوم الشّريعة، وعلوم اللّسان، ثمّ تجويد القرآن، وحفظ الحديث، ثمّ أصول الفقه، والمسائل المنقولة عن العلماء الجلّة؛ ثمّ يحذّرهم من العلوم القديمة، والفنون المهجورة الذّميمة قائلاً:

«واعلموا أنّ بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب، و تجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النّافع، دليلاً بين يدي السّامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللُّباب، والله عزّ وجلّ يقول:﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِين يَعْلَمُونَ والّذِينَ لاَ

يَعْلَمُون إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ [24]، والعلم وسيلة النّفوس الشّريفة، إلى المطالب المنيفة، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة، وخاصّة الملأ الأعلى، وصفة الله في كتبه الّتي تُتلى، والسّبيل في الآخرة إلى السّعادة، وفي الدّنيا إلى النّحلة عادة، والذّخر الّذي قليله يشفع، وكثيره ينفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدوّ المنهصب، ولا يبتزّه الدهر إذا نال،ويستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل، وإن كثرت آماله، و قليل وإن جمّ ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطّى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم،...، وإيّاكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذّميمة، فأكثرها لا يفيد إلاّ تشكيكاً، ورأياً ركيكاً، ولا يثمر في العاجلة إلاّ اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسيمة الصّغار، وخمول الأقدار، الخسف من بعد الإبدار، وجادة الشّريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجِدال؛ هذا ابن رشد قاضي المصر و مُفتيه، وملتمس الرّشد و موليه، عادت عليه بالسّخطة الشّنيعة، وهو إمام الشّريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورّط في ازدحامها؛ و لا تخلطوا حامكم بحامها، إلاّ ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة، وعلاج يرجع على النّفس و الجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضَرَمٌ مسجور، وممقوت مهجور.»[25].

ثمّ يخبرهم أنّه يجب عليهم أن يأمروا بالمعروف، وأن ينهوا عن المنكر، وأن يطيعوا وليّ أمرهم، وأن يحذروا الفتنة، وملازمة الصدق والوفاء بالأمانة، والعهد، ثمّ يحذرهم من ارتكاب الزّنا، وأن يجتنبوا الخمر و الرّبا وذلك في قوله:

«وأمُرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً، وانهوا عن المنكر نهياً حَريّاً بالاعتدال حقيقاً، واغبطوا من كان من سِنة الغفلة مُفيقاً، واجتنبوا مَا تُنْهَوْنَ عنه حتّى لا تسلكوا منه طريقا.

وأطيعوا أمر من ولاّه الله تعالى من أموركم أمراً، ولا تقربوا من الفتنة جمراً، ولا تُداخِلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً.

وعليكم بالصّدق فهو شعار المؤمنين، وأهمّ ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، وأكرم إلى مذهبه، ومن أكثر من شيء عُرف به.

وإيّاكم والكذب فهو العورة الّتي لا تُوارى، والّسَوْأَةُ الّتي لا يُرتاب في عارها ولا يُتمارى، وأقلُّ عقوبات الكذّاب، بين يدي ما أعدّه الله له من العذاب،أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحقّ نطق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الدّيانة كُلوم، ومن الشّريعة التّي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصّيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دَيْن الخيانة، ولا توجدوا للعذر قَبُولاً، ولا تقرُّوا عليه طبعاً مجبولاً ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْد كَانَ مَسْؤُولاً﴾[26]

واجتناب الزّنى وما تعلّق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتدّ في سبيل السّعادة باعه، لو لم تتلقَّ نور الله الّذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشّهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يُزنى بأهله، والله قد أعدّ للزّاني عذاباً وبيلاً، وقال: ﴿وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[27]

والخمر أمُّ الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر؛ واللَّهو لم يجعلْه الله في الحياة شرطاً، والمحرّم قد أغنى عنه بالحلال الّذي سوّغ أعطى، وقد تركها في الجاهليّة أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرّة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجساً محرّماً على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السّداد.

و لا تقربوا الرّبا فإنّه من مناهي الدّين، و الله تعالى يقول: ﴿وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[28]، وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ﴾.[29] في الكتاب المبين. ولا تأكلوا مال أحد بغير حقّ يبيحه، وانزعوا الطّعم عن ذلك حتّى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل خياره إلاّ للثّقة من

خدمه، ولا تلجؤوا إلى المتشابه إلاّ عند عدمه، فهو في السّلوك إلى الله تعالى أصل مشروع والمحافظ عليه مغبوط»[30]

كما حذّرهم من الظّلم لأنه ممقوت، وحضّهم على إفشاء السلام، والعطف على المساكين، ورعاية حقوق الجار، وصلة الرحم، والابتعاد عن شهادة الزّور، وأن يتضرّعوا إلى الله بالدّعاء؛ وأوصاهم أيضا بالزّهد في مصاحبة أهل الدّنيا...

ويختتم ابن الخطيب وصيّته لأولاده بقوله:

«هذه أسعدكم الله وصيّتي الّتي أصدرتُها، وتجارتي الّتي لربحكم أدرتُها، فتلقّوها بالقبول لنصحها، الاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدّنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النّفسية القِيَم، استكثرتم من بواعث النّدم.

ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أنّ تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كلّ حال، فالدّنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار لبقاء، جعل الله من وراء خطّته النّجاة، ونفّق بضائعها المزجاة،بلطائفه المرتجاة، والسّلام عليكم من حبيبكم المودّع، والله سبحانه يُلئمه حيث شاء من شمل متصدّع، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب، ورحمة الله وبركاته»[31].

ففي خاتمة وصيته يذكّرهم مرة أخرى بفوائدها وأهميتها، ثم يحييهم بتحية الإسلام بيد أنها تحية الوداع، وداع الأهل والأحباب؛ و بأن العمر و إن طال منصرم، والشمل وإن التأم والتحم متصدع .

6. الدراسة الفنية :

للموضوع تأثير في تشكيل البنية اللغوية للعمل الأدبي، لهذا اختار لسان الدين الجملة الفعلية لتؤدي معاني الوصية و تنهض بمضمونها، فقد استخدم أفعالا تراوحت بين الماضي والمضارع و الأمر، وهو ما وضع الوصية في جوّ من الحركة والانفعال، ثم ركز على استخدام الجملة الشرطية، وهو اختيار منسجم مع الغرض العام؛ ومن الأمثلة على ذلك:

- ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار.
- ومن بُلِيَ بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال.
- ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق .
- ومن امتحن بها منكم اختيارا، أو جبر عليها إكراها و إيثارا ،فليتلقَّ وظائفها بسعة صدره.

كذلك البنية الفعلية في الوصية تراوحت بين الأمر و النهي مثل قوله:

- واجعلوا و تفكّروا و امتثلوا ...
- ولا تتأوّلوه ولا تغلوا فيه ...

وهذا ليحضّ أبناءه على الامتثال للأوامر ، واجتناب النواهي .

ولم يكتف لسان الدين بهذا التنوع الغني على مستوى الجملة الفعلية بل تعداه إلى استخدام الكلمة وضدها أي إلى تنميق الوصية بالمحسنات البديعية و لا سيما الطباق ؛ وهو أمر تقتضيه طبيعة المضمون الوعظي و من أمثلة ذلك :

- المعروف / المنكر

- صحيح / سقيم
- الآخرة / الدنيا
- الخير / الشر
- الأمانة / الخيانة

نجد أيضا في الوصية التكرار فمثلا يكرر استخدام لفظ الجلالة الله ، وهو أمر ينسجم مع هدفه و ربط الحياة الدنيا بالآخرة ، وهو إذ يكرر ذلك إنما يُلح على هدفه حتى يبلغ به درجة الرسوخ في أذهان أبنائه ، ويفلحوا في الدنيا و الآخرة .

أما التناص فلقد اقتبس لسان الدين نصوصا كثيرة من القرآن الكريم أشرنا إليها سابقا كاستشهاده بقوله تعالى :

﴿يَا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ و أنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[32]؛إذ اقتبس النص القرآني بلفظه ومعناه ولكن في بعض الأحيان اقتبس المعنى فقط وهذا في قوله :« فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له والد و لا ولد، تنزّه عن الزمان و المكان ، و سبق وجوده وجود الأكوان . »[33] ناقلا مضمون سورة الإخلاص .

كما اقتبس نصوصا من الأحاديث النبوية الشريفة التي تعتبر المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله، كقوله صلّى الله عليه وسلم :

« تَركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي كتاب الله و سنتي »[34]. و أيضا قوله عليه الصلاة والسلام :

« لا يدخل الجنّة قتات »[35].وقوله صلى الله عليه و سلم :«يا عائشة أحسني جوار نعم الله ، فإنّها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم »[36].

7. الخاتمة:

ومما سبق يتضح أن لسان الدين بن الخطيب حشد النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أجل ترسيخ هدفه؛ و بهذاانتهت الوصيّة الطّويلة في حجمها، الفريدة في حسنها، و البليغة في أسلوبها؛ و هي وصيّة جامعة نافعة، عبّرت عن حبّ صادق أكنّه ابن الخطيب لأولاده، و عن حرص منه شديد، أن يُلزموا سمت الاستقامة، فيسعدوا في الدّنيا، و ينجوا في الآخرة.

8. الهوامش:

1- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مادة وصى .

2- الفارابي ، تاج اللغة و صحاح العربية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 1999 م ، مادة وصى .

3- ابن منظور ، لسان العرب ، مادة وصى .

4- تنظر :لابن الخطيب، ترجمة ابن الخطيب و أخباره في: الإحاطة في أخبار غرناطة، ، 3: 374-390.

- ابن خلدون، كتاب العبر، و ديوانالمبتدأو الخبر، 7: 636-638-672-697-707-710.
- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا، صفحات متفرقة.
- ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، في نظم فحول الزمان،: 242.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 3: 469.
- ابن القاضي، جذوة الاقتباس: 187.
- المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 7: 5-195.
- المقرّي، أزهار الرياض في أخبار عياض، 1: 186-238.
- الزّركلي،الأعلام ، 6: 135.

محمد عبد الله عنان، لسان الدين بن الخطيب: حياته و تراثه الفكري: 27.

5- محمد عبد الله عنان، لسان الدين بن الخطيب: حياته و تراثه الفكري: 32.

6- معركة كبرى بين العرب و الأسبان سنة 741هـ، (تنظر في القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، لعبد الله أنيس الطّباع: 240).

7-محمد رضوان الدّاية،الأدب الأندلسي و المغربي (أبحاث في الأدب الأندلسي و المغربي) لد. محمد رضوان الدّاية: 256.

8- أرسل الغني وزيره ابن زمرك إلى فاس ، فأُحضر ابن الخطيب في مجلس شورى ووجّهت إليه تهمة الزندقة، ورغم براءته ، فقد أُعيد إلى السجن ثم دسّ إليه خَصْمُه الوزير سليمان بن د اود بعض الأوغاد من حاشيته فطرقوا السجن ليلا و قتلوه خنقا.و في اليوم الثّاني أُخرجت جثّته و دفن في مقبرة باب المحروق، أحد أبواب مدينة فاس، ثم أخرجوه في اليوم الثّالث من القبر، و أشعلوا من حوله النار، فاحترق شعره و اسودّت بشرته، تمّ أعيد إلى القبر

ينظر: خبر مقتل ابن الخطيب في كتاب العبر، 7: 707-710، و نفح الطّيب، 7: 105-107، و أزهار الرّياض، 1: 229-231.

9- محمّد عبد الله عنان، لسان الدّين بن الخطيب: حياته و تراثه الفكري: 229.

10- كتاب العبر، ج 7 : 289

11- المصدر نفسه، ج7 : 959.

12- نثير فرائد الجمان : 243 .

13- هم عبد الله و محمد وعلي، و لقد أخبرنا ابن الخطيب في "نفاضة الجراب" أنّه لمّا توفّيت زوجته أثناء مقامه بسلا تركت له عدداً من الأولاد الصّغار، ذكوراً و إناثاً، و لم نعثر على أخبارهم في أيّ مصدر من المصادر.

- ينظر لسان الدين حياته و تراثه الفكري: 192-193.

14- أزهار الرياض ، ج1 : 321 .

15- المصدر نفسه :320.

16- المصدر نفسه : 322.

17- المصدر نفسه : 323.

18- سورة لقمان آية 13.

19- سورة لقمان آية 17. 19 .

20- سورة البقرة آية 132 .

21- أزهار الرياض ، ج1 : 326..

22- المصدر نفسه : 328.

23- المصدر نفسه : 328.

24- سورة الزمر آية 9.

25- أزهار الرياض ، ج 1 : 330.

26- سورة الإسراء آية 34.

27- سورة الإسراء آية 32.

28- سورة البقرة آية 278.

29- سورة البقرة آية 279.

30- أزهار الرياض ،1: 332.

31- المصدر نفسه : 336.

32- سورة البقرة آية 132.

33- أزهار الرياض ،1 : 323.

34- موطأ مالك ،2 : 799.

35- صحيح البخاري ،5 : 2250.

36- المعجم الأوسط للطبراني ، 8 : 38.